السياسة والقيم الدينية:
ماضي، حاضر ومستقبل الأحزاب الديمقراطية المسيحية

فندق "سوفيتل لوغابريال " قاعة "Espace Gabriel"، الأشرفية، بيروت
الثلاثاء الواقع فيه 7 شباط/فبراير 2017

محاضرة رئيس وزراء سابق في ولايتي رينلاند بفالس وتورينغن و الرئيس الفخري لمؤسسة كونراد أديناور، الأستاذ الدكتور بيرنهارد فوغل

1. إنني سعيد جداً بالتكلم معكم الليلة. ومن دواعي سروري والسيد د. Wahlers أن نكون معاً الليلة.
2. وإنني أعتذر مسبقاً عن شيئين: أن لا أقوم بالتكلم معكم باللغة الفرنسية أو الإنكليزية ولكن بلغتي الأم الألمانية

أنني لم أتي إلى لبنان سابقاً وهي المرة الأولى التي آتي إلى هنا. ولكن عمل مؤسسة كونراد آديناور موجود هنا منذ عدة أعوام. يسعدني كثيراً أن أكون معكم هنا اليوم. وأشكركم على هذه الفرصة!

...

يقف لبنان وألمانيا والشرق الأوسط ، وأوروبا الموحدة، والعالم كله اليوم في مواجهة تحديات، تزعزع الثوابت القديمة.

إن الوتيرة المتزايدة للتقدم التكنولوجي، تفتح لنا دائما آفاقا جديدة، ولكنها في الوقت ذاته، تدفعنا أيضا إلى حدود أخلاقية.إن العولمة تقدم العديد من الفرص ولكنها تخبئ أيضاً في طياتها مخاطر على الاقتصاد والمجتمع والثقافة.[1] ومواجهة التغير المناخي لا تتم إلا بالتعاون مع بلدان العالم بأسره.

كما يشير التغيير المتسارع والمثير للقلق في العلاقات الدولية إلى كون أطروحة "نهاية التاريخ"، التي تمت صياغتها من قبل العالم السياسي الأمريكي فرانسيس فوكوياما في عام 1992 وذلك بعد انهيار الشيوعية، أكثر من أي وقت مضى، مغلوطة.

وأخيراً، هناك تهديداً متزايداً للأمن والسلام من جراء عدد متزايد من الأزمات والصراعات والحروب والإرهاب.

وقد تحمل بلدكم هذا لبنان أعباءاً جسيمة في الماضي وفي الحاضر من جراء الحرب الأهلية في سوريا وكارثة النازحين التي تلته.

وتتطلب هذه التحديات اعتماد سياسة مستدامة. فهذه التحديات تبلور حاجة الناس إلى التوجيه بشكل واضح. إن الحاجة إلى التوجيه كبيرة، أكبر من أي وقت مضى.
إن الناس هنا في لبنان، كما في بلدي الأم في ألمانيا - تريد أن تعرف ما هي المبادئ التي سيقوم المسؤولين السياسيين بمواجهة تحديات الحاضر بها وكيف يريدون بناء المستقبل.

يجب أن يرتكز عمل الدولة وعمل الناشطين السياسيين على معايير واضحة وإطار مفهوم. فإن ربط العمل بالقيم يجنب صاحبه الانجراف بسياسته وراء طلبات الناخبين القصيرة الأمد.

وهنا لا بد للتوجيه أن يكون الأساس والبوصلة لأي حزب سياسي. فالتوجيه لا يسمح فقط برص الصفوف في الداخل، بل يبرز المكانة المميزة للحزب نحو الخارج.

إن من يسعى نحو القيم، لا يراهن على موضات عابرة. بل إنه يحاول اغتنام الفرصة لإبراز سياسته الفريدة وتوجهاته نحو القيم التي تميزه عن غيره.

في ظل الديمقراطية، ليس هناك أحد يملي على الناس كيف عليهم أن يعيشون في الحاضر والمستقبل. بل إن الديمقراطية تعني الحرية في اختيار الرأي ووجهة النظر ونمط الحياة وسبيل الحياة أيضاً.

وهنا يجب على السياسيين أن يقوموا بممارسة القيادة السياسية. ومن هنا لا ينبغي أن يكون سؤالهم: "كيف تريدون أن يكون الوضع عليه؟"، ولكنهم يجب أن يقنعوا الآخرين بالمسائل التي يرونها هامة وذلك بطريقة مقنعة بالتحاور مع الآخرين وبالجدل معهم.

إن من يريد إعطاء رؤية مستقبلية طويلة الأمد لبلده على الساحة السياسية للناخبين وإن من يريد اكتساب الثقة على المدى الطويل، وفي الوقت نفسه أن يحفز الناس على الالتزام تجاه المجتمع، لا بد من أن يحدد مبادئه ويعبر عن معتقداته بشكل واضح.

3. يلتزم دستور جمهورية ألمانيا الاتحادية، والقانون الأساسي بطريقة صريحة الحياد الديني المنفتح الفصل بين الكنيسة والدولة، ولكنه في نفس الوقت يلتزم أيضاً بالشراكة بين الكنيسة والدولة.

وهي تلحظ تعاونهما في العديد من المجالات بصراحة، فعلى سبيل المثال، نرى التعاون في مجال التعليم الديني، والكليات اللاهوتية أو الرعاية الرعوية داخل الجيش. تقوم الكنائس المسيحية – وأنشاء الله عدد متزايد من المسلمين الألمان - بخلق الظروف التي لا يمكن للدولة الليبرالية العلمانية أن تضمنها، ولكنها أساسية لبقاء الدولة على قيد الحياة.

يهتم الطرفان، أي الكنيسة والدولة، نفس مجموعة الناس. وإن الرخاء الدنيوي والشفاء الروحي مرتبطان ببعضهما البعض وهما يخدمان نفس الأشخاص. ومن هنا أهمية مراعاة الآخر والاحترام المتبادل.

تبدأ مقدمة دستورنا بعبارة: "إدراكا لمسؤوليته أمام الله والبشر" وهذا الاعتراف يمثل حدود الالتزام. وهو ما يميزنا عن الاشتراكية والرأسمالية. لأن هناك سلطة أعلى من سلطة المجتمع أو الدولة، ونحن مضطرون، إذا لزم الأمر، أن نناقض غيرنا في هذا المجال. ولقد تم وضع دستورنا بعد كارثة الحرب العالمية الثانية أي في الأعوام 1948-1949 من قبل المجلس النيابي وذلك بهدف إطلاق ألمانيا الغربية سياسياً.

فكان القانون الأساسي المرتكز على الأخلاق الاجتماعية المسيحية، أي الكاثوليكية والبروتستانتيية، بمثابة بوصلة بالنسبة للآباء والأمهات الذين صاغوه. وهذه الأخلاق الاجتماعية المسيحية كانت بمثابة الرد على النازية المرتبطة بهتلر وعلى الشيوعية التي كانت أساس إنشاء ألمانيا الشرقية آنذاك.

4. يرتكز جوهر العقيدة المسيحية على أن الأنسان قد خلق على صورة الله. تماشياً مع هذه الصورة فإن حرمة كرامة كل إنسان لا يجب المس بها.

إن الجذور الثلاثة لقيم الشرائع المسيحية الديمقراطية هي الحرية والعدالة والتضامن. تشكل هذه القيم المعايير لعمل مؤسسة كونراد آديناور.

إن الإنسان هو من خلق الله. وهو ليس مقياس كل شيء. ومن شأنه أن يخطئْ أو أن يكون مذنباً. وهو مدعو إلى بناء العالم بمسؤولة أخلاقية. هذا يعني أن يجيب الإنسان عن أفعاله أو أن يتمنع عن فعل الشئ. وأن يحاسب نفسه أمام نفسه على ذلك وكذلك أمام الله والآخرين.

إن الإنسان هو اجتماعي بطبعه، ولا يمكن له أن يعيش لوحده. وبعد ذلك، فهو يحتاج للآخر. والآخر وخدمة الآخر، هما أساس السياسية والثقافة السياسية.

قد ينتج من جراء الإخطاء في التقييم فهم كون الشخص الآخر المختلف في أفكاره خبيثاً أو غبياً أو أحمقاَ. وقد يكون الآخر على حق. لمعرفة ذلك، لا بد من الاستماع إليه وأخذه على محمل الجد ومحاولة فهم رأيه. وهنا لا بد من التسامح. والتسامح معناه: الآخر لديه نفس الكرامة، بغض النظر عن الانتماء الحزبي والمعتقدات السياسية والدينية.

إن صورة الإنسان في الديانة المسيحية تتطلب احترام المساواة، وكذلك احترام اختلاف الآخر.

معنى العدل التعامل مع الآخرين على قدم المساواة. وكذلك، التعامل بطريقة مميزة مع المختلفين عنا.

إن صورة الإنسان في الديانة المسيحية تعني التعامل والتلاقي مع الآخرين والتصرف الموجه نحو الرخاء الإجتماعي في السياسة وإزلال العقبات والشلل وجعل بدايات جديدة ممكنة.

إن الإدراك بمحدودية البشر يحمي البشر من المذاهب الأيديولوجية وتثقيل كاهل المطالبات في مجال التخطيط السياسي وقدرة التصميم والبناء. فإن كافة الأهداف الإجتماعية المتعالية، وحتى لو كانت صديقة للبشر ومغرية، تتطلب المواجهة.

إن الواقعية المسيحية لا ترفع الحواجز فقط ضد اليوتوبيا السياسية للإنسان الكامل، ولكنها ترفعها أيضا ضد أخذ الإنسان مكان الخالق. فليس كل ما هو من الناحية الفنية ممكن علميا هو أيضاً مسموح به.

فسياسة موجهة نحو صورة الإنسان لا تستطيع إدعاء المطالبة الديكاتورية بتصميم شامل وكامل. فالسياسة لا يجب أن ترضخ للإنسان ولكنها في الوقت ذاته لا تستطيع أن تفعل كل شيء، كما ولا يجب أن يسمح لها بفعل كل شيء. ونحن نتكلم هنا عن سياسة الممكن وليس عن جعل الغير ممكن ممكناً.

إن السياسة من وجهة نظر المسؤولية المسيحية تعني إعادة النظر في القرارات وتحليل كافة عواقبها. وهنا يدرك السياسيون المسيحيون محدودية الوجود ونسبية المشاكل الدنيوية.

يجب على السياسي أن يقرر وفقاً لضميره، ولكن ليس بعيدا عن الواقع. فهو لا يمكن أن يترفع عن الحقائق في تطرف طوباوي. بل يجب عليه أن يجهد لكسب الغالبية في إطار الديمقراطية. كما يجب عليه أيضاً أن يكون قادرا على تقديم التنازلات.

كما يجب عليه إذا لزم الأمر أن يكون على استعداد – وهذا قد يكون صعباً جدا - للموافقة على ثان أفضل حل عندما لا يتمكن من تمرير الحلول المثالية بشكل كامل، وذلك لدرء تمرير حلول أسوء.

5. إن صورة الأنسان هي الركيزة الأساسية لحزبي، أي الاتحاد المسيحي الديمقراطي. وانطلاقا من ذلك نقوم بتصميم سياساتنا منذ ما يقارب 70 عاما.

إن التقيد الثابت بالمفهوم المسيحي للإنسان هو إلى حد ما الشوكة في لحمنا. إن التزامنا بحرف الميم أي مسيحي والذي هو جزء من اسم حزبنا ليس ادعاءً، ولكنه التزاماً ونحن ملتزمون به.
إن حرف الميم هو أيضا مصدر إزعاج لجميع أولئك الذين يحاولون التهرب من التعقيد والتباين في السياسة اليومية وتضارب المصالح والتطلعات.
إن من يعترف بالتزامه بحرف الميم يجب أن يكون مدركاً لما يفعل!

6. بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في ألمانيا كان الحزب الوحيد الجديد الذي تأسس هو الاتحاد المسيحي الديمقراطي. ومعها تأسس نوع جديد من الأحزاب.

قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، أقسم الرجال والنساء الذي كانوا موجودين في الخنادق ومخيمات الاحتجاز ومعسكرات الاعتقال على التغلب على انقساماتهم القديمة في حال خرجوا من الحرب على قيد الحياة.

لقد كانوا ينشدون السلام والحرية والديمقراطية. كانوا يريدون اعادة الاعمار وعودة ألمانيا إلى حضن الدول الغربية المرتكزة على القيم . كانوا يريدون استعادة الوحدة الألمانية كانوا يريدون الفيدرالية، وليس المركزية الألمانية، كما كانوا يريدون أوروبا اتحادية أيضا.

وبدأت في كافة أنحاء ألمانيا أولى بدايات تأسيس الحزب الذي نشأ منه الاتحاد. ولم تأت حركة التأسيس من الأعلى إلى الأسفل ولكن من الأسفل إلى الأعلى.

لم يدر أحد آنذاك بأن هذا الحزب الجديد سيشكل انتصارا حقيقيا فيما بعد. إنه انتصار الاتحاد في السنوات الـ 67 الماضية الذي أدى إلى جعل الحزب قوة سياسية مؤثرة: وأخرجت هذه القوة السياسية في ألمانيا على مدى 47 عاما مستشارين رجال ونساء من صفوفها، مقارنة مع 20 عاما من صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

هناك ثلاث دوافع رافقت الاتحاد في طريقه:

I- الدافع الأول هو للاندماج: كانت لدى الرجال والنساء الذين أسسوا الاتحاد الرغبة في دمج قيم الجذور المسيحية والاجتماعية والليبرالية للأحزاب السابقة في الاتحاد.

لقد أرادوا كاتحاد أن يودعوا بصراحة الأحزاب الطبقية القديمة التي فشلت فشلاً زريعاً في أول محاولة بعد الحرب العالمية الأولى لإنشاء نظام دولة ديمقراطي.

وتغير الرمز من القبضة المرفوعة إلى اليد الممدودة نحو الآخر. لقد أرادوا إتحاداً للأماكن الطبيعية والمناطق الريفية والحضرية، أرادوا إتحاداً للطبقات الاجتماعية، ولأصحاب العمل والموظفين وللشباب والكبار في السن.

لقد أرادوا قبل كل شيء اتحاد الطوائف المسيحية. لقد انطلقت حركة توحيد الكنائس في ألمانيا من النطاق السياسي تلتها لاحقاً الكنائس، لحسن الحظ. لقد طور حزبنا نفسه خلال السنوات الفائتة في هذا المجال. ومن هنا نرى في صفوف الحزب أعضاءً ونواباً ووزراء ينتمون إلى الدين الإسلامي. ومثال جيد على إندماج ناجح للمسلمين في ألمانيا هو اختيار الساسية أيغول أوزغان التي تمت تسميتها كأول وزيرة مسلمة في الحزب المسيحي

الديمقراطي كوزيرة للشؤون الإجتماعية والرياضة والعائلة. وهي أيضاً قالت عبارة : "على أن يساعدني ربي على ذلك" عندما أدّت خطاب القسم.

II- إن الدافع الثاني، هو الدافع للحفاظ على الثوابت والتجديد: استرشد مؤسسو الاتحاد بصورة الإنسان في الدين المسيحي؛ بدءاً من الاعتقاد بأن الإنسان خلق على صورة الله، إلى كون كرامة الإنسان مصونة. لقد استرشدوا بالتعاليم الاجتماعية المسيحية.

إن التعاليم الإجتماعية المسيحية كما قلت سابقاً أثرت في القانون الأساسي أي الدستور وفي مقدمته الذي يذكر الله بشكل واضح والحقوق الأساسية ومواده الـ 19 وخاصة المادة الأولى من الدستور والتي تقول: كرامة الإنسان لا يجوز المساس بها. وباحترامها وصونا تلتزم جميع السلطات في الدولة. ومن صورة الإنسان هذه نستمد قيمنا لجهة الحرية والتضامن والعدالة التي ذكرناها سابقاً.

III. أما الدافع الثالث، فهو الدافع للتحديث: لقد كان مؤسسو الاتحاد مقتنعين بأن عليهم أن يجرؤوا تجربة جديدة بعد فشل جمهورية فايمر وبعد التجارب المريرة مع النازية وما تبعه من كوارث في المجال السياسي والإجتماعي ونظراً للخطر الشيوعي.

كانت بداية جديدة نحو الصداقة مع فرنسا، وتوحيد أوروبا وإعادة توحيد ألمانيا. وقد استخلص الإتحاد نتائجاً سياسية جذرية من جراء التدمير الذاتي الذي قامت به أوروبا.
وقد ساعد الإتحاد اقتصاد السوق الاجتماعي للوصول ولارساء الرخاء - في البداية - في كافة أنحاء ألمانيا الغربية وهو إنجاز يحسدنا عليه الكثيرون من كافة أنحاء العالم.
لقد أردنا الحصول على فرصة ثانية بعد الانهيار التام للتمكن من بناء دولة متينة ومنفتحة وديمقراطية في ألمانيا.
واليوم، وبعد مرور ما يقرب من 70 عاما، يمكننا القول: الحمد لله اننا استطعنا استغلال هذه الفرصة الثانية!

7. لكن الاتحاد يسعى اليوم أيضاً للحفاظ على صورته. وينتابني البعض من القلق. فهناك سلسلة من الأشياء التي المقلقة. إن العلامة الأساسية الفارقة للاتحاد أصبحت غير واضحة المعالم.

"فقط أولئك الذين يعرفون من أين أتوا، يعرفون الى اين هم ذاهبون" (تيودور هويس) فقط أولئك الذين يعرفون أسس الطريق الذين مشوا عليه حتى الوقت الحاضر، يستطيعون لاحقاً تكملة الطريق على نفس الأساس: وبعبارة أخرى، لا يجب التشكيك بالجذور المسيحية بالنسبة للاتحاد. حتى ولو مرت الآراء السياسية بأعنف حالات الجدل.

هذا ينطبق على علاقاتنا مع أكبر كنسيتين في ألمانيا على وجه الخصوص. ومن شأن القطيعة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية والاتحاد أن يشكل تهديداً جوهرياً لحزبي إلى أقصى الحدود.

إن الرابط بين حزبي والكنائس صار مرناً اكثر في السنوات والعقود الأخيرة. وهذا لا ينطبق فقط على جمهور الناخبين لدينا، بل أيضا على أعضائنا والمسؤولين المنتخبين.

كان الناخبون الأساسيون للاتحاد يشكلون 50٪ من الكاثوليك الذين يذهبون بانتظام إلى الكنيسة وينتخبون عموما وفقاً لتوصيات الأسقف. أما اليوم، فهناك واحد فقط من كل عشرة كاثوليكيين ممن يحضر قداس الاحد. والظاهر أن هذا الوضع مختلف عندكم في لبنان.فقد قال لي سعادة مطران بيروت السيد بولس مطر الذي زرته اليوم بأن قداس الأحد ما زال يجذب العديد من المؤمنين.

لقد تغير سلوك الناخبين عندنا؛ فقد قل عدد الناخبين الأساسيين، بينما ازداد عدد غير الناخبين. ومن بين هذه الفئة الأخيرة، هناك عدد ملحوظ من "الممتنعين لأسباب سياسية" الذين لا ينتخبون من جراء قناعاتهم السياسية؛ فهم حاقدون وساخطون على السياسة[2]

لقد تغيرت طريقة الإنتساب إلى حزبي وإلى الأحزاب السياسية الألمانية عموما: فإن عدد الأعضاء في تراجع مستمر ومن يدخل الحزب يفعل ذلك، خلافا لما كان يحدث في الماضي، بدرجة أقل وفقاً للتقاليد ، ولكن رغبة في المشاركة الفعلية في البناء والتصميم. ونحن نأمل أن ينطبق هذا الشيء في المستقبل القريب على لبنان والشرق الأوسط الذي يعاني الويلات.

[2] الوضع: 2015؛ وفقا لمؤتمر الأساقفة الألمان

يستمد الاتحاد منذ نشأته، وليس فقط في فترة الانتخابات، قوته من كافة الفئات والأوساط الاجتماعية. ففي حال أراد أن يبقى كحزب للشعب، يجب أن يسعى لتأمين بيت يحضن ناخبيه التقليديين وفي الوقت ذاته جسرا للناخبين الذين يعيشون الآن بصورة مختلفة عن آبائهم أو أجدادهم أو ممن يأتونا من بلدان وثقافات وأديان أخرى وممن أصبح جزء من المجتمع الألماني الآن.

يجب أن نعطي الدوافع للمواطنين لكسبهم نحو أفكارنا. هذا ليس بالأمر السهل - وخاصة في عام الانتخابات. ويشمل هذا الإقدام على الناخبين من قبل الأحزاب، والتقرب منهم وأخذ إستطلاعات الرأي بعين الإعتبار. لكننا لا يجب أن نردد وراءهم ما يرددونه. هذا هام خاصة في أوقات كهذه، حيث يكثر فيه التطرف السياسي والشعبوية في ألمانيا وفي أوروبا.

كلمة أخيرة فيما يخص أوروبا: منذ إنشاء الاتحاد المسيحي الديمقراطي كان هدفنا الأساسي الدائم هو أن تتحد أوروبا. وهذا ما نجحنا فيه، إلى حد ما. ولكن يجب أن نذكّر دائما بذلك فهناك مصاعب جديدة علينا مواجهتها، كما علينا أيضاً أن نستمر في العمل على هذه الوحدة في المستقبل.

إننا نطمح لتوحيد سلمي لأوروبا وذلك لسببين:

1- إن أوروبا اليوم هي كلمة مرادفة للسلام. فبفضل الوحدة الأوروبية تمكنت قارتي أن تتجازو قرون طويلة من الماضي المظلم والمليء بالأزمات والصراعات والحروب والتغلب على المعاناة والبؤس والموت. الشباب الذين هم الآن بين عمر 17 و 19 عاماً، لم يعد لديهم خوف من فقدان حياتهم على أرض المعركة في أوروبا. كم ليكون الشيء جميلاً لو انطبق ذلك على لبنان والشرق الأوسط في المستقبل القريب.

2-. لا تستطيع دول أوروبا أن تعيش إلا متحدة في داخل الوحدة الأوروبية وفي مواجهة عالم المستقبل المعولم. في نهاية الحرب العالمية الثانية كانت أوروبا تضم حوالي 22٪ من سكان العالم. اليوم لا يوجد سوى حوالي 10٪ من سكان العالم في أوروبا، وبحلول عام 2050 يتوقع أن تنخفض هذه النسبة إلى 7٪ فقط.

8. تتطلب التحديات الجديدة أجوبة جديدة وهذا لا ينطبق فقط عليكم و لكن علينا أيضاً. والقائمة طويلة. إن مقدرتنا على معالجتها ستحدد مستقبل الأجيال القادمة، إن كان مصير الأجيال في لبنان أو في بلدي الأم. وبدوره، يتوقف على ذلك مستقبل كل من لبنان وألمانيا.

فيما يخص حزبي وبلدي، فأنا واثق من أننا سوف نفعل ذلك. كما سنقوم كاتحاد مسيحي ديمقراطي بالمساهمة بشكل فعال في ذلك عبر تمسكنا بأسسنا وقيمنا. على أن تحدد هذه القيم أسس تصرفاتنا اليومية وقراراتنا العملية.

إنني أحذر دائما من مغبة قيام جيلي بإملاء الأشياء على جيل المسؤولين اليوم. خاصة وأننا لم نرد يوماً أن يقوم أحد آنذاك بإملاء شيء علينا.

ولكن يجب أن نشجع هذا الجيل. التاريخ يعلمنا أنه إذا لم نقف مكتوفي الأيدي غاضبين على الهامش،

بل شمرنا عن الأكمام ، وبدأنا العمل سوياً وبنشاط، نستطيع أن نزلل كافة المشاكل والتحديات. إدارة الأزمة...

لماذا من غير الممكن على الجيل الحالي التعامل مع مشاكل اليوم؟

إن المشاركة الفعالة هي التي ستعود بثمارها على الجميع، وهذا صحيح للبنان ولألمانيا على حد سواء.

وشكرا جزيلا!

***